وردة اليـــازجي

للأستاذ يوسف يعقوب مسكوني

— ١ —

نحن جديرون بأن نعنى بمآثر الشاعرات العربيات من بنات قومنا في القديم والحديث. فبهذه العناية تؤدى بعض ما لهن من الحق علينا في مضمار الشعر واللغة، وضربهن بسهم وافر في إظهار شعورهن نحو لغتهن وبنات أمتهن، ومنهن الحديثات ممن تتبعن خطط سابقاتهن فنسجن نسيجاً يليق بنا أن نطلع القراء على ما يتيسر إيراده في هذه العجالة فنحفظ لهن ذكراً باقياً حافزاً لغيرهن من النساء أن يسلكن هذا المسلك الظريف الطريف فيكن أوتاراً موسيقية لأبناء الجيل وبناته. وهذه الشاعرة وردة بنت الشيخ ناصيف اليازجي من شاعرات أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. كان أكثر شعرها رثاء وذلك للنكبات التي حلت بهذه الشاعرة المسكينة فنالت عليها كالسهام لأنها نكبت بكل إخوتها وأختها وأبيها وابنها وابنتها وزوجها. فبكتهم بكاء الخنساء على إخوتها وأولادها، وحذت حذوها في نسق الرثاء وذكرتها مراراً في قصائدها المملوءة من النواح، وهذا ديوانها « حديقة الورد » طافحاً بالرثاء والمآتم والدموع المسكوبة على من فقدتهن من أفراد أسرتها الأعلام، وغيرهم من الأفاضل الكرام.

***

أما سيرتها: فقد ولدت في كفرشيما في لبنان في العشرين من شهر يناير من سنة ١٨٣٨م (١٢٥٣هـ) ثم انتقل والدها إلى بيروت وأدخلها مدرسة البنات للمرسلين الأمريكيين. ولما بلغت الثانية عشرة لقنها والدها أصول الصرف والنحو والبيان والعروض فنبغت فيها، ورآها والدها مطبوعة على الشعر فرشحها له فنظمت عدة قصائد وهي لم تتجاوز الرابعة عشرة. ثم أخذت تكثر من النظم والرثاء والمديح وغيرها، وقد أجادت في الرثاء كما قلنا لما مني به أسرتها من المصائب الفاجعة. وقد اقترنت بفرنسيس شمعون سنة ١٨٦٦م وصرفت أكبر قسم من حياتها في مصر في مدينة الاسكندرية، وتوفيت فيها في الثامن والعشرين من شهر يناير سنة ١٩٢٤ م (١٣٤٢هـ)، وتعرف بأنها أول امرأة نبغت في الأدب العربي في القرن التاسع عشر، وتظهر كتاباتها مقدرة عظيمة في طريقة التركيب على نمط والدها، ومحتويات أشعارها قصائد تنطق بظروف ذات علاقة متينة بتاريخ عائلة اليازجي. ولها مع أديبات عصرها في سوريا ومصر وبغداد مساجلات ومراسلات تنم عن لطف وبراعة في التعبير، ونشرت عدة من المقالات بعضها في مجلة الضياء تناولت فيها قضية المرأة الشرقية وغيرها، وغلب على نظمها مسحة الشعر اليازجي في السهولة والرقة، وقد عمرت طويلا. ومن كتب عنها من الغربيين المستشرق بروكلمن (Brockelman GA111495) وأما الشرقيون فكثيرون[1] نخص بالذكر منهم الأب لويس شيخو اليسوعي (ملاحظات شيخو: التاريخ ص ٤١٥ — ١٦ ونفس الفهرست ص ٢١٣ العدد ٨٢٩) ومحاضرات الآنسة ى (مريم زيادة وقد خصصتها بها وقد طبعت في القاهرة في مطبعة البلاغ المحتوية على اثنتين وستين صفحة مع الرسم). أما ديوانها « حديقة الورد » فقد طبع مرتين في بيروت سنة ١٨٦٧م، سنة ١٨٨١م وفي القاهرة للمرة الثالثة سنة ١٩١٣ م (١٣٣٢ هـ) وزيد على طبعته الأخيرة كثير من القصائد النادرة لها. وأما شعرها فينقسم قسمين: الرثاء والمديح، ولنبدأ الآن بالمديح. فمن ذلك أن قالت في جواب أبيات وردت عليها من وردة بنت المعلم نيقولا الترك الشاعر في مطلع ديوانها:

ياوردة الترك إني وردة العرب ... فيننا قد وجدنا أقرب النسب

أعطاك والدك الفن الذي اشتهرت
ألطافه بين أهل العلم والأدب

وقالت في جواب رسالة إلى الست كاتبة بنت موسى بسترس وفي هذا تورية لطيفة لأن اليازجي بالتركية يعني الكاتب:

---

(١) معجم المطبوعات ليوسف اليان سركيس ص ١٩٣٩ — ٤٠ مادة يازجي، قاموس تراجم الأعلام لخير الدين الزركلي ج ٣ ص ١١٣٤ فتاة الشرق، مجلة الآثار المجلد الثاني — بلاغة النساء لفتحية محمد. تاريخ الصحافة لفيليب دي طرازي، مجلة سيدات والرجال الـ ٥ الخامسة أعلام النساء في عالمي العرب والاسلام لعمر رضا كحالة ج ٣ ص ١٦ — ١٦٥٤ ط دمشق، المطلة الاسلامية المجلد الرابع ص ١٢٣٩ مادة يازجي المقتطف المجلد الرابع والستون ج ٢ ص ٢٣٩.

بيني وبينك في الأسامي نسبة لا في المعاني أنت فوق مراتبي
سميت كاتبة بكل لياقة وأنا كما تبغين بنت الكاتب

وقالت وقد عادت صديقة لها من سفر :

زار الحبيب فزار أجفاني الكرى ودنا سرور كان عن قلبي سرى
لا تنكروا إن غاب عني مرة شيم الكواكب أن تغيب فتظهرا

ثم تقول :

أهلا بمن أخذ القلوب وديعة وأعادها ممه تخوض الأبحرا[1]

وقالت في رسالة إلى صديقة لها وقد كانت في سفر :

مني السلام على الذي هجر الحمى فجرت دموعي كالسحائب عندما
الشوق زاد من البعاد تحسراً والنوم صار على العيون محرما

ثم هي تقول فيها :

يا راحلا أضحى فؤادي عنده وبقيت من وجدي أراعي الأنجما

وكذلك قالت :

مني السلام إلى من سار في السحر وبدّل العين بعد النوم بالسهر[2]

وقالت وقد بعثت بها إلى إحدى صواحبها وقد كانت في سفر :

رحل الحبيب وحسن صبري قد رحل فمتى يعود إلى منازله الأول
وتضيء أرض أظلمت من بعده وتقر عيني باللقا قبل الأجل

ثم تقول :

قد قل صبري للبعاد تحسراً والجسم من أجل الفراق قد انتحل
يا غائباً والقلب سار بأثره شوق مقيم في فؤادي كالجبل
يا بدر غبت اليوم عنا راحلا والبدر ليس يغيب شهراً إن أفل[3]

وقالت في الأميرة تاج الشهابية :

تحية من مشوق زائد الغلل تهدى إلى تاج مجد من ذوي الدول

ثم تقول :

إلى التي صار قلبي اليوم مسكنها كأنها الشمس حلت منزل الحمل
جميلة الخلق تحكي البدر طلعتها جليلة الخلق في قول وفي عمل

وكذلك تقول :

يا من بها زهت الأيام قائلة :
لا تحسبوا أن كل الفضل للرجل

وقالت تمدح ميخائيل الدوّر :

نخل اليمامة يفدى نخلة ظهرت
في أرض بيروت منها الظل والثمر

ثم قالت وقد زار أباها الأمير أمين أرسلان :

تدفق في منازلنا السرور مساء حين شرفها الأمير
أضاءت بهجة كالصبح لما تجلى فوقها القمر المنير
فكادت ترقص الأكباد فيها بما نالته أو كادت تطير

وكذلك قالت جواباً لصديق أبيها محمد عاقل أفندي الساكن في الاسكندرية :

زارت بجنح الدجى والليل معتكر
فقالت الدار ها قد أشرق السحر
خود تميس بقدٍّ كالقناة بدا إذا رأته غصون البان تنكسر
قدٌّ يقدُّ قلوب العاشقين إذا ما اهتز يوماً ترى الأكباد تنفطر
خطت لأهل الهوى سطراً بوجنتها إياكم النار لا يؤذيكم الشرر

ثم هي تقول :

أهدى إلى بيوتاً كل قافية منهن تخجل منها الأنجم الزهر

وهي تقول أيضاً :

سحبان مصر ويا ركن البلاغة من به القوافي غدت تزهو وتفتخر

وقالت تجيب أحد الفضلاء عن أبيات بعث بها إليها من بغداد :

من الكريم بها علي رسالة تفدى بكل وصيفة ووصيف

وفيها تقول :

أهديتني مدحاً به أغرقتني في بحر فضل لم يكن بمخيف

وكذلك قالت جواباً لأحد الأفاضل عن أبيات أرسلها لوالدها من بغداد :

---

(١) ديوان حديقة الورد ص ٣ من الطبعة الأخيرة .
(٢) نفس المصدر ص ٤ .
(٣) كذلك ص ٥ .

خود من العرب وافت تنجلي تيهاً
كالشمس تشرق فينا من أعاليها

إلى أن تقول :

اللوذعي الذي الزوراء مسكنه وصيته سار في أقصى ضواحيها
حيا الحيا أربع الزورا وأهليها وجادها الغيث هتاناً يواليها
في أرضها منبع العلم الذي غمرت مياهه وارتوت منه أهاليها
أهدى إلى بيوتاً كل قافية منهن تسكر لا بالخمر قاريها

ولها في لبنان ذكريات ولوعات حيث تقول فيه :

يا ربى لبنان حياك الحيا وسقى تربك هتان الغمام
يا ربوع الأنس يا دار الصفا يا جنان الخلد يا أهنا مقام

ثم انظرها تقول :

وخرير الماء في تلك الربى كحنين من محب مستهام
بسط الزهر على أرجائه بين ورد وبهار وخزام
وترى الأطيار في تلك الربى بين شحرور وباز وحمام

وفي تهنئتها للأميرة نازلي هانم بعودتها من أوربا تقول :

أهلا بذات العلى والمجد والحسب سليلة العلوى الماجد النجب
شمس بدت من سماء الغرب مشرقة فنار ما في سماء الشرق من شهب
فرع كريم أتى من دوحة سقيت أعراقها بمياه الفضل لا السحب

وقالت تتذكر أيام الصبا :

يا زمان الصبا عليك السلام يا ربيعاً تزهو به الأيام
فيك تحلو الحياة يا زهرة العـ ـمر وتنمو العقول والأجسام
لهف نفسي على أويقات أنس قد تقضت كأنها أحلام
حيث كان الزمان طلق المحيا وعيون الأكدار هنا نيام[1]

وقالت تمدح شكري الخوري والسوريين في أميركا الذين اشتركوا في إقامة تمثال لأخيها إبراهيم .

يا من يقصر عن شكري له قلمي لما أتى من جميل الفضل والكرم
الفاضل الشهم شكر الله من لهجت بشكره ألسن الأيام والهمم

ذكرت قومي إلى ما ترتابه لهم صنعاً جميلا وبرهاناً لودهم
لهم علينا اليد البيضاء ما بقيت فينا حياة توالي ذكر فضلهم
يا سادة جمعتهم نسبة الوطن الـ ـمحبوب جمع الثريا غير منفصم
جددتم شخص من تهفو لرؤيته كأنما هب مبعوثاً من الرحم
فلو تمكن من نطق لصافح لكم شكراً ويهجه بالدر والحكم

وما مديحي لكم حبر على ورق
بل خط في لوح صدري شكركم بدمي[1]

إلى هنا نكتفي من قولها نظما في المديح ، وأما الرثاء فقد أبدعت فيه كل الابداع وأجادت فيه كل الاجادة . فهي التي بكت في رثائها وأبكت من سمعها أو قرأها في هذه القصائد المحزنة التي نأتي ههنا بالميسور إيراده فقالت ترثي البطريرك مكسيموس مظلوم حين توفي بالاسكندرية سنة ١٨٥٥ :

يا حاسباً دنياك دار قرار أقصر عناك فتلك أخبث دار
لا تستقر بها النفوس ولا ترى قلباً بلا غم ولا أكدار
دنيا غرور كلما طال المدى طال الغرور بمكرها الغرار

ثم هي تقول :

لله يومك في الأنام فانه أبقى لنا حزنا مدى الأدهار

وقالت ترثي المرحوم مارون نقاش المتوفى سنة ١٨٥٥ م :

الموت للناس كالجزار للغنم فليس يترك من طفل ولا هرم
كأس يدور علينا ساقياً أبداً وليس يترك إنسانا من الأمم

ثم تقول :

ذابت لفرقته الأكباد والمهج
أجفاننا من دموع ضرجت بدم

وقالت أيضاً ترثي المرحوم غالي بميث الأميركي :

ذابت بحمرة فقدك الأجسام يا فاضلا غدرت به الأيام

ثم تقول :

قد سرت عن وادي الدموع مودعاً
هل يرتجى بعد الوداع سلام

(يتبع)

يوسف يعقوب مسكوني

(١) ديوان حديقة الورد ص ٦٥ .

(١) كذلك في ص ٨٥ و ٨٦ .